دور السياق في توجيه مقاصد الخطاب النبوي في كتاب "الخطب" لأبي يعلى الزواوي الجزائري

The role of context in guiding the purposes of the Prophet's discourse in the speech book by Abi Yaala Zwwawi of algeria

د/ نعيمة روابح محاضر-أ- جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية-قسنطينة-

naima.rouabah@univ-emir.dz

الملخص بالعربية:

تنبّه علماء العربية قديما إلى أن مبدأ القصد شرط لصحة القول في دلالات الخطاب اللغوي، وهو ما ميَّز أعمال التداوليين اليوم في اشتغالهم على نظرية المعنى من خلال التركيز على مقاصد المتكلمين ومراميهم والمقام والسياق؛ فالاستعمال ما هو إلا تأكيد على أن الخطاب لا يكون إلا بين متكلم ومخاطب في شروط تواصلية معينة تنطوي على القصد وإرادة الإفهام، فإذا كانت الدلالة تدرس العلاقة بين المفردات والجمل وما تشير إليه، فإن التداولية تدرس معاني الأقوال التي ترتبط بمقامات انتاجها، فهي تعتمد على سياقات التخاطب في الكشف عن مقاصد المتكلم، من خلال عنايتها واحتفائها بالمعنى المقصود في إطار السياق، والاستعمال لأنه أساس العملية التخاطبية وجوهرها.

ستحاول هذه الورقة العلمية إبراز أهمية السياق في الكشف عن مقاصد الخطاب النبوي في ارتباطه بالاستعمال؛ باعتبارها مسألة في غاية الأهمية تسهم في نجاح الفعل التواصلي القصدي الواعي بين المرسل والمرسل إليه، وقد تخيرنا مدونة (الخطب) لأبي يعلى الزواوي الجزائري للكشف عن دور السياق بنوعيه في توجيه مقاصد الحديث النبوي الشريف.

الكلمات المفتاحية: السياق/ المقاصد/ الخطاب

Abstract :

Scholars in Arabic have long pointed out that the principle of intention is a condition for the validity of a statement in the semantics of linguistic discourse. This I what characterized the work of deliberators today in their work on the theory of meaning by focusing on the speakers intentions, their intentions, their position, and their context; use in merely an affirmation that the speech is made only between a speaker and a recipient in certain communicative conditions. If meaning studies the relationship between vocabulary and sentences and what they refer to, deliberative studies the meaning of statements that correlate with their

production meaning of a speaker through their care and celebration within the meaning of the context, and usage because it is the basic and essence of the communicative process.

This paper will try to highlight the importance of context in uncovering the purposes of the Prophet's discourse as it relates to usage, as it is a very important issue that contributes to the success of the conscious intentional communication act between the sender and the addresse. Abu Yaala's blog the speechers may allow us to reveal the role of context in both its aspects in guiding these purposes.

Keywords : context , intention, discourse.

تقديم:

تهتم التداولية بتناول النص بوصفه موضوعا للدراسة، وتركّز فيه على جانبين؛ الأول متمثّلا في دراسة اللغة لأنها الوسيلة الوحيدة في تحقيق التفاعل في العملية التخاطبية، والثاني في مراعاة المجال الاستعمالي لها (للغة)، وتحديد هذه المعاني لا يتم إلا من خلال السياق وما تحيل عليه اللغة؛ لأن اللغة بتوجيهها تدل على وضعية الخطاب وما تشير إليه من تأويلات تساهم في الوصف، أو الإخبار.....،وهذا ما تؤكده المقولة الشهيرة (لفيتنغشتاين) (لا تسألني عن المعنى واسألني عن الاستعمال)[1]، إذ إن الاستعمال هو المحدّد النّوعي للمعاني المقصودة.

لهذا فإن التداولية تهتم بدراسة المعنى الذي يحاول أن يوصله المتكلم والمتلقي ويؤوله، فهي على علاقة مباشرة بتحليل ما يقصده المتكلم من خلال ما يستخدمه من تعابير أكثر مما تعنيه الكلمات أو العبارات المتقدمة في تلك التعابير في حد ذاتها.

أما السياق بوصفه مكوّنا من مكوّنات نظام التواصل، فهو الذي يولّد الوظيفة المرجعية للكلام، لأن إحدى وظائف اللغة الأساسية أنها تحيل على الإطار الخارجي للغة.

أولا: السياق معطى تداوليّ:

تعدّ اللغة في مجمل مفاهيمها منظومة من الاستعمالات وفق إنتاج المتكلم ومقصديته، لذلك فإن العديد من المحاولات والتصورات لعلماء اللغة قد انصبَّت على تحديد علم ينظر في حقيقة ما ينتجه الإنسان من خطابات مختلفة، والكشف عن مراميها ومقاصدها؛ لأن كل خطاب لا بد أن يكون له قصد

[1] - فيتغنشتاين والتداولية مقاربة فلسفية لمرحلة التأسيس، قادري عبد الرحمن، دكتوراه علوم في الفلسفة، جامعة وهران 2، 2014-2015م، ص 59.

وغرض، كما أنّ فهم المتلقي للخطاب وتأويله مرتبط بمعرفة مقاصده، فكل مقاربة لسانية تتضمن اعتبارات سياقية تنتمي بالضرورة إلى ذلك المجال من الدراسة اللغوية المسمى "التداولية".[1]

إنه من الممكن أن نميز بين مستويين من مستويات دراسة المعنى؛ الأول مستوى ما قبل التحقق السياقي في مقام التخاطب وهو من اختصاص علم الدلالة؛ والذي يبحث في معاني المقولات الحرفية أو المعاني المباشرة، أما المستوى الآخر فهو مستوى ما بعد التحقق السياقي، وهو من اختصاص علم التخاطب الذي يبحث في المعنى بعد أن يصير قصداً فعليا تَبَعاً للقرائن التي ينصبها المتكلم؛ لأن مقاصد المتكلمين لا يمكن التوصل إليها إلا بمعرفة السياقات التي قيل فيها الكلام.

وعلى الرغم من أن الدلالة والتداولية كلاهما تُعنى بقضية المعنى، وبما أنّ القصد سمة جوهرية في البحث التداولي، فإنه لا يمكننا أن نتغافل عن الكشف عن أهمية الجانب التركيبي للنص في تداوليته، فكل من المستوى التداولي والمستوى التركيبي يسهمان في التداولية الخاصة بنص ما.

إنّ فكرة العناية بالسّياق• (إمّا مراعاة لحال المتكلّم، أو لحال المخاطب، أو للموقف الكلامي بكامله)، كانت محلّ عناية اللّغويين، والبلاغيين العرب القدامى، وهي عند المفسّرين والأصوليين على قدر كبير من الأهميّة؛ لكونه أكثر وسيلة مهمّة من وسائل الكشف عن المعنى المراد من النّصوص الشّرعيّة وأحكامها، فتناوله الفقهاء في كتب الأصول والأحكام، وعرض له البلاغيون في كتب الإعجاز وبديع القرآن... إلخ.[2]

وفكرة السّياق عند الغربيين، أيضا، لم تكن جديدة تماما، إنّما كانت استمرارا لجهود الدّرس اللّغوي، "ولعلّ من الإنصاف القول بأنّ هؤلاء الغربيين قد صاغوا هذه الفكرة في شكل نظرية قابلة للتّطبيق على جميع أنواع المعنى، من صوتيّة، صرفيّة، نحويّة، واجتماعيّة. ووضعوا لها من المعايير والإجراءات ما يجعلها تقف على قدم المساواة مع بقية النّظريات التي تتناول المعنى بالتّحليل والتّفسير"[3]، وهي من المساهمات الحقيقيّة للغويين الإنجليز في مجال الدّراسات اللّغويّة بعامة، والدّرس الدلالي على وجه الخصوص.

لقد بنيت الدراسات التقليدية على مسألة السياق والموقف الكلامي الذي يتطلب – كلما تغير - نمطاً معيناً من التركيب، ويدخل ضمن الموقف الكلامي كل ما يتصل بملابسات العملية التخاطبية من مخاطِب، ومخاطَب، وخطاب، على أن التداولية اليوم، تتجاوز محددات الدلالة إلى إمكانية الوصول إلى قصدية المتكلم بإحالتها للجملة على السياق التداولي.

---

[1] - علم لغة النص النظرية والتطبيق، عزة شبل محمد، مكتبة الآداب، ط1، القاهرة، 2007م، 10.

• وردت لفظة (السياق) في التراث العربي تحت مسميات كثيرة منها: الحال، الدّليل، القرينة، المقام، الموقف،...

[2] ينظر: نظرية السياق بين القدماء والمحدثين دراسة لغوية نحوية دلالية، عبد النّعيم خليل، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط1، الإسكندرية، 2007م.ص236،195،163،111. ودلالة السياق، ردّة الله بن ردّة بن ضيف الله الطّلحي، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، 1418هـ، 1/62-82.

[3] - دلالة السياق، ردّة الله بن ردّة بن ضيف الله الطّلحي، ص137.

فالتداولية "اتجاه في الدراسات اللسانية الحديثة، يُعْنَى بأثر التفاعل التخاطبي في موقف الخطاب، ويستتبع هذا التفاعل دراسة كل المعطيات اللغوية والخطابية المتعلقة بالتلفظ، ولاسيما المضامين والمدلولات التي يولّدها الاستعمال في السياق"[1]، وتشمل هذه المعطيات:[2]

- معتقدات المتكلم ومقاصده، وشخصيته وتكوينه الثقافي ومن يشارك في الحدث اللغوي.
- الوقائع الخارجية، ومن بينها الظروف المكانية والزمانية والظواهر الاجتماعية المرتبطة باللغة.
- المعرفة المشتركة بين المتخاطبين، وأثر النص الكلامي فيها.

ثانيا/القصد والمعنى والتداولية

إن دراسة الحجاج في الخطاب من المسائل التي اهتمت بها التداولية، ولهذا الاهتمام مبرراته منها أن الخطاب الحجاجي يخضع ظاهريا وباطنيّا لقواعد شروط القول والتلقي، بمعنى أن كل خطاب حجاجي تبرز فيه مكانة القصدية (intentionnalité) والتأثير والفعالية، وبغض النظر عن تداخل اختصاصات المقاربة التداولية، فإن هذه الأخيرة تحاول الإجابة عن أسئلة مهمة من قبيل: من يتكلم؟ وإلى من يتكلم؟ ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟ ما مصدر التشويش والإيضاح؟ كيف نتكلم بشيء ونريد قول شيء آخر؟ وللإجابة عن هذه الأسئلة يتطلب استحضار مقاصد التكلّم وأفعال اللغة وبُعدها التداولي والسياقي...الخ.[3]

ويظهر ارتباط الخطاب الحجاجي بالبعد التداولي في عدة مستويات، ذلك أن الحجاج يتلبس بألبسة لسانية وأسلوبية، على أساس أن الباحث إذا أراد رصد الصور الأسلوبية في الخطاب الحجاجي أو الصور البنائية الاستدلالية، فمبدئيا سيكون بصدد أفعال كلامية[4] لها مرجعية مقالية ومقامية[5]مشتركة بين المتكلم والمستمع، أو بين المخاطِب والمخاطَب.

وإذا كانت التداولية هي دراسة استعمال اللغة في الطبقات المقامية المختلفة؛ التي تتنوع حسب مقاصد المتكلمين، وأحوال المخاطَبين، فإن السياق أهم دعائمها ومقوماتها الأساسية، لأن أيّ فهم لخطاب لغوي معيّن لا يمكن تحقيقه إلا بعد تحديد معنى الكلمة في انتظامها ضمن تركيب معيّن ومن

---

[1] - عبد المجيد السيد، دراسات في اللسانيات العربية: بنية الجملة العربية- التراكيب النحوية والتداولية علم النحو وعلم المعاني، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، الطبعة الأولى، 2004، ص: 119.

[2] - المرجع نفسه، ص: 120.

[3] ينظر: الحجاج والاستدلال الحجاجي، حبيب أعراب، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، عالم الكتب الحديث، الأردن، 3/35،36.

[4] - على مستوى أفعال اللغة المتداولة في الحجاج هناك الأفعال (العرضية) والتي تستعمل حسب أوستين Austin "لعرض مفاهيم، وبسط موضوع، وتوضيح استعمال كلمات، وضبط مراجع، مثال ذلك: أكّد، أنكر، أجاب، اعترض، مثّل، فسّر،...". ينظر: المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينكو، تر: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، د ت، ص11.

[5] - على مستوى السياق هناك أدوات وتعابير وصيغ تضفي السمة الحجاجية على تخاطب ما، مما يجعل الحجاج يكون ضمنيا أو صريحا، وهكذا "نجد تعابير إنجازية موجهة إلى ربط قول ما بباقي الخطاب وبكل السياق المحيط، من هنا نعثر على "أجيب" و"أستنبط" و"أستخلص"...وتأتي هذه التعابير لتربط القول بالأقوال السابقة وأحيانا بالأقوال اللاحقة". المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينكو، ص65.

خلال وضعها في سياقات مختلفة، مع تقصّي الأحوال الاجتماعية والنفسية، والأوضاع التاريخية التي أنتجت هذا الخطاب.

يرتبط المعنى إذن بمعرفة قصد المتكلم، وارتباط القصد في الكلام هو أساس معرفة المراد، وهذه المعرفة من جملة ما تتقصاه الدراسات التداولية اليوم،إذ يمثل القصد ما يبتغيه المتكلم ويفيده المتلقي وهو أمر نبه إليه القدماء، وفي ذلك يقول الآمدي:" دلالات الألفاظ ليست لذواتها، بل هي تابعة لقصد المتكلم وإرادته"[1]؛ إذ يشترط "أهل العربية القصد في الدلالة، فما يفهم من غير قصد من المتكلم لا يكون مدلولا للفظ عندهم، فإن الدلالة عندهم هي فهم المقصود لا فهم المعنى مطلقا بخلاف المنطقيين، فإنها عندهم فهم المعنى مطلقا سواء أراده المتكلم أم لا، فظهر أن الدلالة تتوقف على الإرادة مطلقا مطابقة كانت أم تضمنا"[2].

كما أن القصد في الخطاب والفعل شخصيٌّ ومرتبط بالذات؛ فلا يُسأل أو يؤاخذ أحد عن قصد غيره، جاء في الموافقات "ولا يلزم أحدا أن يقصد وقوع ما هو فعل الغير لأنه غير مكلّف بفعل الغير، وإنما يُكلّف بما هو من فعله".[3]

لقد ذهب كثير من العلماء إلى أن المقاصد هي المعاني، وإنما الألفاظ وضعت من أجل الوصول إلى معانٍ معينة، لكن من العلماء من رأى أن ثمة فرقا بين المعنى والمقصد ومن هؤلاء نجد "محمد يونس علي"؛ إذ يرى أن الفرق بين المعاني والمقاصد يكمن في أَنَّ[4]:

- المعنى هو مدلول الألفاظ على مستوى التجريد، وهو مدلول افتراضي؛ لأن تصوره يقتضي عزله عن سياق التخاطب والعودة إلى مرجعيته الوضعية لتحديد مضمونه، في حين أنه لاستنباط المقاصد لابد من الوقوف على القرائن اللفظية والمعنوية والاستعانة بالقدرات الاستنتاجية والتأمل في الأصول التخطابيّة.
- المعاني تنتمي إلى الوضع والاستعمال، أما المقاصد فتنتمي إلى الاستعمال والكلام.
- المعاني (معاني الجمل) تدرس في علم الدلالة (semantics)، أما المقاصد (مقاصد القولات) فتدرس في علم التخاطب (pragmatics).

فالعلاقة بين المعنى والقصد ترجع بالضرورة إلى الدور الذي يؤديه السياق في علاقته بمقصود دلالة المتكلم، «فليس المعنى المقصود المحصل في خطاب من الخطابات هو بالضرورة المعنى الذي يعثر

---

[1] - الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت،1983م، 1/ 104.

[2]- الأفق التداولي- نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية، إدريس مقبول، ص: 24.

[3] - الموافقات، الشاطبي، تحقيق: عبد الله دراز، دار المعرفة، 1989م.

[4]- تحليل الخطاب وتجاوز المعنى نحو بناء نظرية المسالك والغايات، حمد محمد يونس علي، دار كنوز المعرفة، ط1، عمان- الأردن، 2013م، ص 92، 93.

عليه في القاموس... أما استعمال اللفظ بمعنى آخر غير معناه الوضعي (الموضوع له في أصل اللغة أو المعاني) فهو ما يسميه العلماء العرب بالاتساع أو سعة الكلام، وهو تجوُّزٌ يبيحه الاستعمال للغة لعلاقة قائمة بين المعنى الأصلي والمعنى المتوسع فيه»[1]، وهو أمر يحتاجه كل من يروم أدراك القصد الحقيقي من الخطاب، وذلك من خلال تتبع كل مكوناته المساهمة في تكوينه، إلى جانب مكونات أخرى كلغة الخطاب، ومضمونه، ومن استهدفه في التوجيه[2]، «فعاقد الكلام لا يسمى متكلما إلا إذا كان قاصدا التوجه بكلامه إلى مخاطب، ومتلقي الكلام لا يسمى مخاطَبا إلا إذا كان قاصدا التوجه بسمعه إلى المتكلم، إذ السامع الذي يقع الكلام في سمعه صدفة لا يسمى مخاطَبا»[3].

فمعنى الخطاب لا يؤخذ مباشرة من المعاني المعجمية للمفردات التي تدخل في بنائه، مضافا إليها المعنى التركيبي النحوي، «بل إن معنى الملفوظ ذو طبيعة افتراضية، تكهنية، تفسيرية بنائية، وإذا كان معنى الملفوظ ذا طبيعة افتراضية فذلك لأن هذا المعنى- على عكس دلالة الجملة التي هي ذات طبيعة تجريدية ثابتة- يتغير بتغير مقامات التخاطب، ومن ثم فإن ما يميز كل ملفوظ هو قبوله لقراءات متعددة»[4].

إن مسألة القصدية (l'intentionnalité)، حتى وإن أقصيت من أحضان الدلالة، فقد لاقت ترحيبا كبيرا بين التداوليين الذين نادوا بضرورة العناية والاحتفاء بالمعنى المقصود في إطار السياق والاستعمال لأنّه لبّ العملية التواصلية وجوهرها[5]، لذلك نجدهم قد عنوا منذ غرايس «بقصود المتكلمين ومراميهم من الكلام، وذلك بمتابعة كيفية إنتاجها والاستدلال عليها والتقعيد لذلك، خاصة أنها على درجة من الميوعة والانفلات بحيث يعسر القبض عليها وضبطها في كثير من الأحيان. إلاّ أنّها على ذلك فهي أكثر جوهرية بالقياس إلى ما تدل عليه بنية الكلام اللسانية في التواصل القصدي»[6]، وبهذا يكون "غرايس" قد انشغل بصنفين من الدلالة: الدلالة الطبيعية التي لا يحضر فيها القصد، والدلالة غير الطبيعية وهي الدلالة التي تتحدد باشتراط حضور القصد العلني إليها.[7]

---

[1]- بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، عبد الرحمن الحاج صالح، موفم للنشر، الجزائر، 2012، 1/ 341.

[2]- ينظر: المعنى والقصد بين الإظهار والإضمار في التراث اللغوي العربي القديم ولسانيات التخاطب ، محمد السهول، ضمن كتاب: قضايا المعنى في التفكير اللساني والفلسفي، الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم، تونس، 2015م، ص 374.

[3]- التأويل الدلالي- التداولي للملفوظات وأنواع الكفايات المطلوبة في المؤول، إدريس سرحان، ضمن كتاب: التداوليات علم استعمال اللغة، تنسيق وتقديم: حافظ اسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إربد- الأردن، الطبعة الثانية، 2014، ص124.

[4]- المرجع نفسه، ص 124، 125.

[5]- ينظر: المرجع نفسه، ص 127.

[6]- لسانيات التواصل الإنساني من العبارة إلى القصد، عبد العزيز بنعيش، مطبعة أنفو، فاس- المغرب، الطبعة الثانية، 2014، ص 151.

[7] - ينظر: في تداوليات القصد، إدريس مقبول، مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)، المجلد 28 (5)، 2014م، ص 1212 وما يليها.

ولتوضيح فكرته يسوق "**غرايس**" مثالاً: "هَبْ أن صاحب منزل خرج من منزله وترك الأضواء منارة، فترك هذه الأضواء يمكن أن يكون فعلا قاصداً، كما يمكن أن يكون غير قاصد، وقاصداً إذا أريد منه إيهام اللصوص بوجود شخص بالمنزل، وآنئذٍ يكون ربّ المنزل مُرْسلاً واللصوص مرسلاً إليه. وغير قاصدٍ إذا كانت دلالة وجود شخص في المنزل المستسقاة من الأضواء المنارة غير مرادة ولا مقصوداً منها بعث رسالة للصوص، وفي هذه الحالة لا مرسل ولا مرسل إليه"[1].

يتّضح من خلال المثال السابق، أننا يمكن أن نستشف منه كما قال عبد العزيز بنعيش دلالتين: "دلالة غير قصدية، وهي التي نستنبطها دون أن تكون معنية وفي هذه الحالة يكون هناك غياب لمتخاطبين حقيقيين، ودلالة قصدية وهي جوهر حديثنا ويتم استنباطها مع كون القصد إلى تحصيلها من قبل المتلقي حاصلاً لدى المتكلم"[2].

أما "**سيرل**" (**Searle**)، فإنه يرى "بأن المقاصد لها تكوين بيولوجي، ولها أطر معيّنة في ذهن المرسل لذلك، فإن غاية قصد المرسل هي إفهام المرسل إليه، ويشترط ليعبر المرسل عن القصد الذي يوصل إليه أن يمتلك اللغة في مستوياتها المعروفة، ومنها المستوى الدلالي، وذلك بمعرفته بالعلاقة بين الدوال والمدلولات، وكذلك بمعرفته بقواعد تركيبها وسياقات استعمالها، وعلى الإجمال معرفته بالمواضعات التي تنظم إنتاج الخطاب بها"[3] .

ويفرق الباحثون بين العلامات ذات الدلالة الطبيعية والعلامات ذات الدلالة المقصودة، وبتصنيف "**غرايس**" المعنى الطبيعي والمعنى غير الطبيعي، فبعض العلامات ذات المعنى الطبيعي بالرغم أنها تحمل معنى لكنها تخلو من القصد، مثل الدخان الذي يدل على وجود النار، واحمرار الوجه في دلالته على الخوف، إذ لا يوجد هنا خطاب يتطلب مرسلا، ويطلق على هذا النوع من العلامات عند السيمائيين بالمؤشر[4].

كما أن هناك صنف من العلامات لا يتحدّد معناها إلا من خلال قصد المرسل، مثل الرمز (Symbol)؛ لأن هذه العلامات تتكون كما قال **أوستين وغرايس وفيتغنشتاين** وغيرهم من ثلاثة عناصر هي: الدال والمدلول والقصد[5]، "وما المعنى اللغوي إلاّ علامة تنطوي عليه مقاصد المتكلم، وهذا ما يجعل معنى الخطاب يتعدد بتعدد السياقات التي ينتج فيها"[6] .

---

[1]- لسانيات التواصل الإنساني من العبارة إلى القصد، عبد العزيز بنعيش، ص 150- 151.

[2]- المرجع نفسه، ص151.

[3]- استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي بن ظافر الشهري، ص 183.

[4]- المرجع نفسه، ص 185.

[5]- المرجع نفسه، ص 185.

[6]- استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2004م،ص 185.

إنّ ارتباط القصد بالاستعمال مسألة في غاية الأهمية تسهم في نجاح الفعل التواصلي القصدي الواعي بين المرسل والمرسل إليه، إذ "يتدخل القصد بوصفه معياراً في صلب تصنيف العلامة، فينقلها من صنف إلى آخر، كما ينقلها من حيّز الخلوّ من المعنى فتصبح ذات معنى، وعليه فإنه يمكن تصنيف الأمارات من حيث دلالتها إلى ثلاثة أصناف (الأمارات العفوية، والأمارات العفوية المغلوطة، والأمارات القصدية؛ ويتعلق الأمر بالوقائع التي توفر إشارات أنتجت قصداً لتوفيرها وهي إشارات لا تبلغ هذا الهدف إلا شريطة الاعتراف بها بوصفها أنتجت لتبلغ ذلك الهدف".[1]

مع ذلك كله يقول **منقور عبد الجليل**: "يبقى أمر المعنى والوصول إلى مقصدية الخطاب معقدة للغاية، ذلك أنه يستجمع إليه جملة من متعلقات وجوده وظهوره مثل كيفية إنتاجه وتداوله، والمفاتيح التي يقدمها للقراءة وغير ذلك مما ذكره منظرو نظرية المعنى في العصر الحديث المرتبطة بإنتاجية الخطاب"[2].

ثالثا/ الخطاب النبوي الشريف وخصائصه

يعدّ الحديث النبوي الشريف النّص المقدّس الثاني بعد القرآن الكريم، وهو ما نُسب إلى الرسول (ص) من قول أو فعل أو تقرير، وهو في أصله نصٌّ منطوق قبل أن يُدوّن في الصّحاح والمسانيد مسوقا إلى الناس عامة، وإلى المؤمنين والمسلمين خاصة، من أجل تبليغ الدعوة الإسلامية، يقول الرافعي:" وإذا أراك القرآن أنه خطاب السماء للأرض، أراك هذا-الخطاب النبوي-أنه كلام الأرض بعد السماء".[3]

وأسلوب الرسول (ص) متميّز بقوّته، وشرف كلامه الناجم عن العصمة، كيف لا وهو الذي أوتي جوامع الكلم، يقول القاضي عياض يصف فصاحته وبلاغته (ص):" وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان صلى الله عليه وسلم من ذلك بالمحل الأفضل الذي لا يجهل سلامة طبع وبراعة منزع، وإيجاز مقطعٍ، ونصاعة لفظٍ، وجزالة قولٍ، وصحة معانٍ، وقلّة تكلّفٍ، أوتي جوامع الكلم".[4]

وقد أحسن الجاحظ(ت255ه) وصف الخطاب النبوي الشريف في قوله:" هو الكلام الذي قلّ عدد حروفه، وكثُر عدد معانيه، ونُزّه عن الصّنعة والتكلّف، استعمل المبسوط في موضع البَسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشيّ، ورغِب عن الهجين السُّوقيّ، ولم يتكلّم إلا بكلام حُفّ بالعصمة، وشدّ بالتأييد، ويسّر بالتوفيق. وهذا الكلام عن ميراث حكمه، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفّ بالعِصمة، وشُدّ بالتأييد، ويُسّر بالتوفيق، وهذا الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه وغشاه بالقبول،

---

[1]- المرجع السابق، ص: 186.

[2]- النص والتأويل- دراسة دلالية في الفكر المعرفي التراثي، منقور عبد الجليل، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 2010م، ص 165.

[3] - إعجاز القرآن الكريم والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، مكتبة مصر، د ط، د ت، ص 323.

[4] - الشفا بتعريف حقوق سيدنا المصطفى، القاضي عياض، مراجعة: هيثم الطعيمي، ونجيب ماجدي، دار الرشاد الحديثة، د ط، الدار البيضاء، 2006م، ص 54.

وجمع بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلّة عدد الكلام هو مع استغنائه عن إعادته وقلة حاجة السّامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلّت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبدُّ الخطب الطوال بالكلام القصير، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصّدق، ولا يطلب الفلج (أي الفوز والظفر) إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة، ولا يستعمل المؤاربة، ولا يهمز ولا يلمز (لا يغتاب ولا يعيب)، ولا يبطئ ولا يعجل، ولا يسهب ولا يحصر، ثم لم يسمع الناس بكلام قطّ أعمّ نفعا ولا أصدق لفظا، ولا أعدل وزنا، ولا أجمل مذهبا، ولا أكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين عن فحواه من كلامه (ص)".[1]

رابعا/ دور السياق في توجيه مقاصد الخطاب النبوي في كتاب خُطب أبي يعلى الزواوي الجزائري[2]

يتميّز الحديث النبوي إضافة إلى شرف منزلته، بخصائص بناه التركيبية التي تجعل منه خطابا متميّزا بصدق القول وفصاحته، وشرف المعنى ودقته، ومتانة التركيب وطلاوة سبكه، وسحر التأليف وجمال معرضه، وإيجاز التعبير وبلاغته، وروعة بيانته، وقوة حجّته، وللسياق بنوعيه (اللغوي وغير اللغوي) دور كبير في هذا التميّز، وفي الكشف عن مقاصد الخطاب النبوي، إذ لا يكاد يغيب في مصنفات المحدّثين لا مصطلحا ولا مفهوما، والدراسات المتعلقة بالحديث دراسات تداولية بامتياز، والشروحات التي قدمها شرّاح الحديث هي عبارة عن تحليل سياقي، وهو ما تسعى هذه الدراسة إلى استنطاقه انطلاقا مما جاء في خُطب الإمام أبي يعلى الزواوي الجزائري.

1- المشيرات اللغوية (النّصيّة) وأثرها في توجيه الخطاب النبوي ضمن كتاب (الخطب)

الحديث الأول: خطبة (في الإسلام والاعتصام به)

---

[1] البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، 8/2، 9.

[2] - ولد أبو يعلى الزواوي (1866- 1952م) بقرية تدعى " إغيل إنزكري"، ولاية تيزي وزو، تتلمذ على يد والده، فأخذ عنه الفقه و القراءات و النحو، و كان إلى جانب ثقافته العربية و شغفه بلغة العرب و آدابها، و اعتزازه بعلوم الشريعة من فقه و توحيد و حديث و تفسير و تمكنه منها، عارفا باللغة الفرنسية تعلّمها على يد مدير السجن الذي كان أبو يعلى يعلمه اللغة العربية ، حيث حكم عليه بالسجن لمدة سبع سنوات بسبب حادثة وقعت له في شبابه، له من المؤلفات: كتاب الإسلام الصحيح، جماعة المسلمين، تاريخ الزواوة، أصل البربر بزواوة، الخطب، فصول في الإصلاح، الخلافة قرشية، أسلوب الحكيم في التعليم، الفرق بين المشارقة والمغاربة في اللغة العربية وغيرها، ذبائح أهل الكتاب، مرآة المرأة المسلمة، الكلام في علم الكلام.،بعد عمر مديد بلغ التسعين عاما سخره في خدمة قضايا أمته خطابة و كتابة، وداعيا و مصلحا وافته المنية سنة 1952 بمدينة الجزائر و دفن في مقبرة الشيخ عبد الرحمن الثعالبي رحمه الله.

"من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، والجنّة حقٌّ والنار حقٌّ، أدخلَه الله الجنّةَ على ما كان عليه من العمل".[1]

يعدّ النّص نسيجا متداخل الخيوط، متلاحم الأنسجة، لائتلاف ألفاظه مع معانيها، لذلك فإن من معايير السياق اللغوي اختيار اللّفظ المناسب، وترتيب ألفاظ النّص ترتيبا مقصودا، مثلما عبّر عنها الجرجاني بقوله:" إن الكلم يترتب في النّطق بسبب ترتيب معانيها في النّفس، ولما كانت المعاني لا تتبيّن إلا بالألفاظ، وكان لا سبيل لها إلا بترتيب الألفاظ، فاكتفوا عن ترتيب المعاني بترتيب الألفاظ، وقالوا:" هذا لفظٌ متمكّن وهذا لفظُ نابٍ".[2]

جاء سياق الحديث مرتب الألفاظ ومما ساعد على تناسقها أكثر استخدام الرابطة (الواو) التي تفيد الربط والترتيب في (التوحيد، محمد خاتم الأنبياء، عيسى نبيّ الله، الجنة والنار..)، بحيث تترتب الكلمة اللاحقة على ما قبلها من ألفاظ، فكان للعناية بسياق الحديث أثر في توجيه مقاصده وسياق الخطبة عند أبي يعلى الزواوي وهو الدعوة إلى الإسلام والاعتصام به، مصداقا لقوله تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾ آل عمران: ١٩

كما أسهم التكرار في قوله (والجنّة حقٌّ والنار حقٌّ) في الربط بين المحتوى القضوي للجملتين وبين أجزاء النص؛ فالتكرار دوره "تحديد القضية الأساسية في النص بالتأكيد على محتوى معيّن، أو تكرار الكلمات المفاتيح"[3]، ضف إلى أنه أحد العوامل التي ترتبط بالقدرة على الإفهام، والذي زاد من ترابك الكلمات بعضها ببعض هو التضاد بين (الجنة والنار) فقد جمع السياق اللغوي بينهما لمساعدة القارئ على فهم الحديث، وهو نوع من أنواع الربط المعجمي (أو ما يعرف بالتضام في لسانيات النص collocation).

الحديث الثاني: خطبة (في مراقبة الله في السّر والإعلان)

"اعْبدِ اللهَ كأنكَ تراهُ، فإن لم تكنْ تراهُ فإنهُ يراكَ".[4]

---

[1] - وزاد في كتاب" مشكاة المصابيح" (وأن عيسى .....ورسوله وابن أمته): الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ط2، بيروت، 1979م، باب كتاب الإيمان، رقم الحديث 27، ص 15.

[2] - دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلّق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ص 55.

[3] -علم لغة النص النظرية والتطبيق، عزة شبل محمد، ص 105.

[4] - خطب أبي يعلى الزواوي، أبي يعلى الزواوي، اعتنى بها: عادل بن الحاج همال الجزائري، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، ص 114.

جاء في الصحيح عن أبي هريرة قال: كان النبي (ﷺ) يوما بارزا للناس، فأتاه رجلٌ، فقال: ما الإيمان؟ قال: الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه، وبلقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث الآخر. قال: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: الإسلام: أن تعبد الله لا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزّكاة المفروضة، وتصوم رمضان. قال: يا رسول الله، ما الإحسان؟ قال:" أن تعبد الله كأنك تراهُ، فإنك إنْ لا تراه، فإنه يراك".[1]

وهو حديث عظيم جدّا، "يشتمل على شرح الدين كلّه، ولهذا قال النبي (ﷺ) في آخره: "هذا جبريل آتاكم يُعلِّمكم دِينكم"، بعد أن شرح درجة الإسلام، ودرجة الإيمان، ودرجة الإحسان، فجعل ذلك كلّه دينا.[2]

فالسياق اللغوي الذي جاء فيه الحديث النبوي الشريف هاهنا "إنما ذكر أصول أعمال الإسلام التي ينبني الإسلام عليها"،[3] إذ روي عن أبي هريرة عن الرسول (ﷺ) قال:" إن للإسلام صُوى• ومنارًا كمنار الطريق من ذلك: أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، والأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر، وتسليمك على بني آدم إذا لقيتهم، وتسليمك على أهل بيتك إذا دخلت عليهم، فمن انتقص منهن شيئا، فهو سهم من الإسلام تركه، ومن يتركهن، فقد نبذ الإسلام وراء ظهره".[4]

إن التصوير المجازي في الفعل (ترى) يتخذ وظيفة حجاجية تشمل الوظيفة في معناها الاستدلالي العقلي المحض، كما تأخذ بعين الاعتبار الوظيفة النفسية؛ أي الأثر الذي يتركه هذا المجاز في النفس فيجعل المخاطِب منخرطا فيما يدّعيه الخطاب المجازي من دعوى.

كما أن توظيف التوكيد ب(أنّ وإنّ) في الحديث هو من باب توكيد المعنى المراد تمثيله، مما أضفى على السياق دقة وبلاغة في التعبير عن المعنى المقصود.

---

[1] - صحيح مسلم، اعتنى به : أبو صعيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الرياض، 1998م، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، ص 37.

[2] - جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، ط8، 1999م، ص 97.

[3] - جامع العلوم والحكم، ابن رجب، ص 98.

• الصُّوى: أعلام من حجارة منصوبة في الفيافي المجهولة، يستدل بتلك الأعلام على طرقها.

[4] - جامع العلوم والحكم، ابن رجب، ص 100، وسلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، دمشق، 1378هـ، ص 651.

بالنتيجة فإن الحديث النبوي اعتمد في سياقه التركيبي على آلية التشبيه (الكاف) وهي أداة بيانية حجاجية، جمعت إلى جانب البيان المبالغة والإيجاز في المعنى المقصود؛ فأما البيان فحسبه أنه عبّر عمّا في نفس النبي (ص) تعبيرا مؤثرا سليما بلغ به المراد، وأما المبالغة ففي الارتفاع بالمشبّه (رؤية العبد الضعيف) إلى حدّ المشبّه به (الله عزّ وجلّ)، لكن هذا الارتفاع مهما بلغ وعلا فلن يصل إلى مستوى رؤيته عزّ وجلّ لعبده.

وعليه فإن للصورة البيانية في الحديث السابق أثرها في المعنى، ووقعها في الإبانة عن المقصود من خلال انتظامها في سياقها، والعلاقات التي تنشأ بين وحداتها، والروابط التي تصل الكلام بعضه ببعض، وتجمع بين عناصره، فيُرى ما بينها من تنافر أو تضاد أو تلاؤم كل ذلك في تساند وتناظر وانسجام لتأدية المعنى المقصود وتحقيق المقاصد والأغراض.

إن العلاقات بين الجمل ليست ذات طبيعة دلالية فحسب، بل هي براغماتية أيضا، فالأمر يتجاوز الربط بين الجمل إلى الربط بين الأفعال الكلامية أيضا، فالأحداث الكلامية في الحديث النبوي (**اعبدْ، تراهُ، يراكَ**) ذات طبيعة قصدية، حيث ترتبط خطة مسار الأحداث الجزئية المختلفة (**اعبدْ اللهَ**) (**كأنكَ تراهُ**) بالنتيجة النهائية المحددة التي ينبغي أن تتحقق (**فإن لم تكن تراه فإنه يراك**)، كما أن الوجوب في

الأمر ليس مسألة لغوية، بل لغوية تداولية لتحقق شرطيْ الصيغة (اعبدْ) والسّلطة (النبي ﷺ)؛ فحضور سلطة المتكلم في الحديث هي من جعلت فعل الأمر لا يخرج عن قصد التوجيه إلى مقاصد أخرى.

الحديث الثالث: خطبة (في الاجتماع: الجماعة أو الجمعة أو الحجّ)

قال (ﷺ): **"أُوصيكُم بتقوى اللهِ، والسّمعِ والطّاعةِ، وإنْ تَأمَّر عليكُم عبدٌ فأطيعوه، فإنهُ منْ يَعشْ منكم فإنهُ سَيرى اختلافًا كثيرا، فعليكُم بِسُنّتي وسُنّة الخلفاءِ الرّاشدين المَهديين من بعدي، عضُّوا عليها بالنّواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن ذلك بدعة وكل بدعة ضلالة".**[1]

وروي عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله (ﷺ) موعظةً، وَجِلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا يا رسول الله، كأنها موعظة مُودّع، فأوصنا، قال: أوصيكم بتقوى الله، والسّمع والطّاعة، وإنْ تأمّر عليكم عبدٌ، وإنه من يعشْ منكم بعدي فإنه سيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنّتي

[1] - خطب أبي يعلى الزواوي، ص81.

وسنّة الخلفاء الرّاشدين المهديين من بعدي، عضُّوا عليها بالنّواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن ذلك بدعة وكل بدعة ضلالة".[1]

جاء الحديث في سياق الموعظة، وهي بلاغة مستحسنة لأنها أقرب إلى قبول القلوب واستجلابها، ولأن البلاغة "هي التوصّل إلى إفهام المعاني المقصودة، وإيصالها إلى قلوب السامعين بأحسن صورة من الألفاظ الدّالة عليها، وأفصحها وأحلاها إلى الأسماع، وأوقعها في القلوب".[2]

لقد وظّف النبي ﷺ أسلوب الأمر في الحديث وبصورة متكررة (أوصيكم، أطيعوه، عليكم، عضّوا، إياكم،..)؛ لأن خطابه تضمّن تعليمات وتوصيات هامة، والالتزام بها بعد وفاته يحفظهم من شرّ الفتن والبدع.

ففي قولهم: " يا رسول الله كأنها موعظة مودّع": دلّت على أنه (ﷺ) كان قد أبلغ في تلك الموعظة ما لم يبلغ في غيرها، لذلك فهموا أنها موعظة مودّع؛ فإن المودّع يستقصي ما لا يستقصي غيره في القول والفعل.

أما في قولهم: " أوصنا": فالمقصود وصية جامعة كافية، فإنهم لما فهموا أنه مودّع، استوصوه وصية ينفعهم التمسّك بها بعده، يكون فيها كفايةٌ لمن تمسّك بها، وسعادة له في الدنيا والآخرة.[3]

وفي قوله: "أوصيكم بتقوى الله، والسّمع والطاعة": ففي التقوى: سعادة الآخرة لمن تمسّك بها، وهي وصية الله للأوّلين والآخرين قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيّٗا حَمِيدٗا ١٣١﴾ النساء:١٣١

وأما السّمع والطاعة: فلوُلاة أمور المسلمين، ففيها سعادة الدنيا، بها تنتظم مصالح العباد في معايشهم، وبها يستعينون على إظهار دينهم وطاعة ربّهم.

---

[1] - جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، ابن رجب، ص 109.

[2] - جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، ابن رجب، ص 111.

[3] - ينظر: جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، ابن رجب، ص 116.

وبهذين الأصلين وصّى النبيّ (ﷺ) في خطبته في حجّة الوداع، ومما أخرجه الإمام أحمد والترمذي:" قال رسول الله: يا أيها الناس اتّقوا الله، وإن أُمّر عليكم عبدٌ حبشيٌّ مجدّع، فاسمعوا له وأطيعوا ما أقام فيكم كتاب الله"، وقد خرّج مسلم من الحديث (السّمع والطاعة).[1]

أما في قوله: وإن تأمّر عليكم عبدٌ، وفي رواية أخرى (حبشيّ) وهذا مما تكاثرت به الروايات عن النبيّ (ﷺ)، وهو مما اطّلع عليه النبي (ﷺ) من أمر أمته بعده، وولاية العبيد عليهم.[2]

وفي صحيح مسلم:" عن أبي ذرّ قال: إن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع، وإن كان عبدا مُجدّع الأطراف".[3]

وقد قيل: إن العبد الحبشيّ إنما ذكر على وجه ضرب المثل، وإن لم يصحّ وقوعه.

وقوله: "من يعشْ منكم بعدي فإنه سيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الرّاشدين المهديين من بعدي، عضُّوا عليها بالنّواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن ذلك بدعة وكل بدعة ضلالة"؛ فهو إخبار من الرسول (ﷺ) بما وقع في أمته بعد وفاته، من كثرة اختلاف في أصول الدين وفروعه، وفي الأقوال والأعمال والاعتقادات، ومن الافتراق والاختلاف بالتمسّك بسّنته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده.[4]

وقوله: عضّوا عليها بالنّواجذ: فهي كناية عن شدة التمسك بها، والنواجذ هي الأضراس.

وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة: هي تحذير للأمة من اتباع الأمور المحدثة المبتدعة، وزادها تأكيدا في قوله (كل بدعة ضلالة)؛ فالبدعة كل ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدل عليه، فقد جاء في صحيح مسلم:" عن جابر بن عبد الله أنه قال: إن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد، وشرّ الأمور مُحدثاتها، وكل بدعة ضلالة".[5]

فالسياق اللغوي الذي جمع هذه المعاني الأولية للوحدات المعجمية لا يمكن تأويله دون استحضار السياق الخارجي الذي أنتج هذا الخطاب؛ فما وصى به الرسول (ﷺ) صحابته والتابعين له حول

---

[1] - صحيح مسلم، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة، رقم الحديث 1298، ص 512.

[2] - ينظر: جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، ابن رجب، ص 118.

[3] - صحيح مسلم، كتاب المساجد، باب كراهية تأخير الصلاة، رقم الحديث 648، ص 254.

[4] - ينظر: جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، ابن رجب، ص 120.

[5] - صحيح مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم الحديث 867، ص 335.

محدثات الأمور والبدع بحكم اختلاف الأزمنة وتغير السياقات الاجتماعية والثقافية؛ إذ في زمن (ﷺ) لم تكن مثل هذه البدع واقعة، لكن بعد وفاته كثر الخلاف حول هذه الأمور، وظهرت البدع فاستحسن الناس بعضها وردّ بعضها، وتفرّقت الأمم لعدم تمسّكهم بكتاب الله وسنة رسوله.

الحديث الرابع: خطبة (في الصيام)

"إنّ الشّيطان لَيجري من ابن آدمَ مَجرى الدّمِ فَضَيّقُوا مَجارِيهِ بالجوعِ".

وفي حديث آخر "لكلِّ شَيءٍ بابٌ وبابُ العبادةِ الصّوم".[1]

جاء في صحيح البخاري:" عن عليّ بن الحسين أن النّبي (ﷺ) أتته صفيّةٌ بنت حُييٍّ، فلما رجعت انطلق معها، فمرّ به رجلان من الأنصار، فدعاهما فقال: إنما هي صفية، قالا: سبحان الله، قال: إن الشيطان يجري من ابنِ آدمَ مجرى الدّمِ".[2]

وزاد العسقلاني في كتابه "...وإني خشيتُ أن يُلقِيَ في أنفسكُما شيئًا".[3]

وموضوع الحديث حول جواز خروج المعتكف لقضاء حوائجه إلى باب المسجد؛ فقد جاء في الرواية أن صفية زوجُ النبيّ(ﷺ) جاءت تزوره في اعتكافه في المسجد وقد كان عنده أزواجه فرُحن، وقال لصفية: لا تعجلي حتى أنصرف معك، وأما اختصاص صفية بذلك لكون مجيئها تأخر عن رفقتها فأمرها بتأخير التوجيه ليحصل لها التساوي في مدة جلوسهن عنده، أو ان بيوت رفقتها كانت أقرب، فخشي النبيّ(ﷺ) عليها، أو كان مشغولا فأمرها بالتأخر لِيفرغ من شُغله فيشيعها، فمرّ به رجلان لما رأيا النبيّ (ﷺ) أسرعا في المشي، فقال لهما على رسلكما ثم دعاهما وقال: إنما هي صفي، فقالا: سبحان الله وكبر عليها، وفي رواية أخرى قالا: يا رسول الله هل نظن بك إلا خيرا.

---

[1] - خطب أبي يعلى، ص 95.

[2] - صحيح البخاري، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 2002م، كتاب الأحكام، باب الشهادة تكون عند الحاكم في ولاية القضاء أو قبل ذلك للخصم، رقم الحديث 7171، ص 1772.

[3] - فتح الباري، بشرح صحيح الإمام البخاري، بن حجر العسقلاني، قرأ أصله تصحيحا وتحقيقا: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، المكتبة السلفية ، 4/ 282.

والمحصل من هذه الروايات أن النبيّ (ﷺ) لما تقرّر عنده صِدقُ الرّجلين لم ينسبهما إلى أنهما يظنّان به سوءا، ولكن خَشي عليهما من وسوسة الشيطان ذلك لأنهما غير معصومين فقد يفضي بهما ذلك إلى الهلاك.[1]

يتبين إذن أن عدم العناية بالسياق وما يحيط بنصّ الحديث من قرائن لفظية وحالية قد يجرّ القارئ إلى تحريف الكلام، وسوء فهم مقاصد المتكلّم؛ وللصورة البيانية في الحديث أثرها في المعنى، ووقعها في الإبانة عن المقصود من خلال انتظامها في سياقها، إذ دائما ما تؤدي صور الكناية دورا هامّا في تصوير المعاني، ونقلها على وجه أبلغ وأنسب للمقام، فهي تبرز المعاني المجردة في صور محسوسة، فترسم المعاني في أشكال وصور تراها العين فلا تشكّ النفس في وقوعها، فيكون ذلك أدعى إلى قبولها.

وهي أيضا "ثوب ورداء تسترفيه المعاني التي يتحرّج المتكلم من التّصريح بها، كما أنها تحرّك الفكر، وتبعث النفس على التأمل في المعنى المباشر لظاهر الكلام، ثم المرور منه إلى المراد عن طريق العلائق والصلات بين ظاهر الكلام والمعنى الكنائي المراد".[2]

إن التعبير الكنائي يحمل دلالات متعددة تحيل على المنشأ الذي نشأ فيه، والموقف الذي تمّ التعبير فيه عنه (السياق)، والحديث النبوي لم يخلُ من تلك الدلالات ذات البعد الأخلاقي، والاجتماعي، فدلالة التراكيب الكنائية تستند إلى حد بعيد إلى ظاهرة التواضع الاجتماعي لأن بعضها لا يفهم من خلال تجزيء مفاهيمها.

2- المشيرات المقامية وأثرها في توجيه الخطاب النبوي ضمن كتاب (الخطب)

يعدّ المقام في الدراسات التداولية "المفسّر الوحيد والحقيقي للمعاني المضمنة في الأقوال، والتي تعجز الجملة تركيبا وبنية ومُعجمًا عن إجلائها"؛[3] لدرجة اقتراح بعضهم استبدال مصطلح "التداولية" بمصطلح "المقامية" أو "السياقية"؛ لاهتمامها بكل ما لا يرتفع اللُّبس فيه إلا بالمقام الذي استعملت فيه.

إن الوقوف على مقاصد الخطاب النبوي في الأحاديث المنسوبة إليه يتطلب معرفة أسباب ورود الحديث، لارتباطه بسياقات خارجية (الزمان، المكان، الأشخاص،..) والمعرفة بهذه السّياقات طريق

---

[1] - ينظر: فتح الباري، العسقلاني، 4/ 278، 279.

[2] - التصوير المجازي والكنائي، صلاح الدين محمد أحمد، مكتبة سعيد رأفت، ط1، 1988م، ص240.

[3] - المشيرات المقامية في اللغة العربية، نرجس باديس، مركز النشر الجامعي، منوبة، 2009م، ص 22.

للوصول إلى الفهم الصحيح للحديث النبوي، يقول ابن تيمية "وطريق معرفة سبب الحديث إنما هو الرواية فقط، ولا مجال للرأي فيه كما نصّ عليه الأئمة".[1]

تنوعت صور القرائن المقامية في الحديث النبوي من: قصة وسؤال وإشارات ورموز وحركات، وقد تكفّل المشاهدون من الصحابة بنقلها إلى التابعين بألفاظ صريحة، والشواهد التي انتقتها الدراسة ستحاول إظهار دور هذه القرائن في الكشف عن مقاصد النبي (ﷺ).

الحديث الأول: (خطبة في الحجّ)

"مَنْ حجَّ هذا البيتَ فَلَمْ يَرفثْ ولم يَفسُقْ خَرجَ من ذُنوبِهِ كَيومِ وَلدتُه أُمّه".[2]

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ﷺ):" العُمرة إلى العُمرة كفّارة لما بينهما، والحجّ المبرور ليس له جزاء إلا الجنّة".[3]

جاء في صحيح البخاري: حدّثنا آدم حدّثنا شعبة حدّثنا سيّارٌ أبو الحكم قال: سمعت أبا حازم قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبيّ (ﷺ) يقول: "من حجَّ لله فلم يَرفُث ولم يَفسُق رجع كيوم ولدته أمّه".[4]

والحديث يتقاطع مع قوله تعالى:﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧﴾ ال بقرة:١٩٧

استعمال اسم الإشارة للقريب في نص الحديث في قوله (هذا البيت) إشارة إلى بيت الله الحرام (الكعبة)، وهي قرينة تحيل على سياق خارجي للنص، المقصود به: من أراد هذا البيت وهو يشمل الحجّ والعمرة.

---

[1] - اللّمع في أسباب الحديث، السيوطي، تحق: غياث عبد اللطيف دحروج، دار المعرفة، ط1، بيروت، 2004م، ص 14.

[2] - خطب أبي يعلى الزواوي، أبي يعلى الزواوي، ص 83.

[3] - خطب أبي يعلى الزواوي، أبي يعلى الزواوي، ص 83. ومشكاة المصابيح، الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، كتاب المناسك، رقم الحديث 2508، ص 772.

[4] - صحيح البخاري، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور، ص 370.

أما قوله: فلم يرفث: الرّفث هو الجِماع، وأضاف الأزهري بقوله: الرّفث: اسم جامع لكل ما يريده الرجل من المرأة.[1]

أما قوله: لم يفسق: أي لم يأت بسيئة ولا معصية.[2]

ومقام الإحالة في النص يسمى في الدراسات اللّسانية الحديثة مقام الحضور[3] situation de présence، لأنه حضور مادي (هذا البيت) تحيل معه اللفظة إلى مجال عليه حاضرٌ في مقام التخاطب يدركه المخاطب إدراكا حسّيا، وهو شأن المشير المقامي (اسم الإشارة هذا)؛ فقد ساعدت هذه القرينة التداولية على تحديد وتوجيه المقصد من الحديث النبوي.

الحديث الثاني: خطبة (في الأسباب والمعاملة)

" عليكم بالتجارة فإن فيها تسع أعشار الرّزق".

وقال (ﷺ): **"لئن يأخذ أحدكم حبلا فيحتطب على ظهره خير من أن يأتي رجلا أعطاه الله من فضله، فيسأله أعطاه أو منعه".**[4]

جاء في صحيح البخاري:" حدّثنا عبد الله بن يوسف أخبرنا مالك عن أبي الزّناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله (ﷺ) قال: والذي نفسي بيده، لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير من أن يأتي رجلا فيسأله، أعطاه أو منعه".[5]

إن الوقوف على المعاني الأولية التي تتعلق بمقاصد المتكلم، والتوصل إلى معنى المعنى يتطلب من المتلقي أن يكون مُلمّا –إلى جانب العلاقات اللغوية- بالعلاقات غير اللغوية التي يتوقف فهم المتلقي عليها، ومرجعية هذه العلاقات ماثلة في سياق مجيء الحديث وروايته.

---

[1] - فتح الباري، العسقلاني، 3/ 382.

[2] - فتح الباري، العسقلاني، 3/ 382.

[3] - المقام ذو وجوه ثلاث تتظافر جميعا لتجعل منه وحدة، وقد أحصى قردنارGardiner لهذه الوحدة وجوها ثلاثة هي: مقام الحضور، مقام المعرفة المشتركة، مقام الخيال. ينظر: المشيرات المقامية في اللغة العربية، نرجس باديس، ص 33.

[4] - خطب أبي يعلى الزواوي، ص 104

[5] - صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، الحديث رقم 1470، ص 358.

تجدر الإشارة هنا أيضا إلى أن الزواوي في استدلاله بالحديث النبوي الشريف كان يعضّده بالقرآن الكريم، وفي أحايين كثيرة كان يورد أكثر من حديث للاستدلال على الموضع الواحد كما صنع في الشاهد السابق.

الحديث الثالث: خطبة (في الإسلام والعمل به وأركانه)

" المسلمُ من سَلِم المسلمون من لسانه ويده"[1].

جاء في صحيح البخاري: "عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله (ﷺ): المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه".[2]

وفي رواية أخرى:" سمعت عبد الله بن عمرو يقول: وربّ هذه البنية لسمعت رسول الله (ﷺ) يقول: المهاجر من هجر السيّئات، والمسلم من سلم النّاس من لسانه ويده"؛ والمراد بالناس هنا المسلمون كما في الحديث الموصول، فهم الناس حقيقة عند الإطلاق، لأن الإطلاق يحمل على الكامل، ولا كمال في غير المسلمين.[3]

فنص الحديث مفتوح على احتمالات عدة منها "يحتمل أن يكون المراد بذلك أن يبيّن علامة المسلم التي يستدل بها على إسلامه وهي سلامة المسلمين من لسانه ويده، ويحتمل أن يكون المراد بذلك الإشارة إلى الحثّ على حسن معاملة العبد مع ربه؛ لأنه إذا أحسن معاملة إخوانه فأولى أن يُحسن معاملة ربّه".[4]

لقد أدى السياق دورا في تحديد معاني (اللسان، واليد) وقام على توطين الوحدتين المعجميتين في وضعٍ واحد من مجموع الاحتمالات السابقة؛ فقد خُصّا بالذّكر "لأن اللسان هو المعبّر عمّا في النفس، واليد لأن أكثر الأفعال بها.....وفي التعبير باللّسان دون القول نكتة، فيدخل فيه من أخرج لسانه على سبيل الاستهزاء، وفي ذكر اليد دون غيرها من الجوارح نكتة، فيدخل فيها اليد المعنوية كالاستيلاء على حق الغير بغير حق"؛[5]

---

[1] - خطب أبي يعلى الزواوي، أبي يعلى الزواوي، ص 74. صحيح مسلم، اعتنى به: أبو صهيب الكرمي، كتاب الإيمان، ص 49

[2] - مشكاة المصابيح، الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 1979م، كتاب الإيمان، ص 10.

[3] - ينظر: فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري، 1/ 70.

[4] - فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري، بن حجر العسقلاني، 1/ 53.

[5] - فتح الباري، العسقلاني، 1/ 54.

خاتمة:

-تقوم هذه المقاربة التداولية على تحليل الخطابات المنسوبة إلى النبي (ﷺ) واستنطاقها، واستخراج معانيها، وتبيّن مقاصدها.

- حضور السياق بنوعيه (اللغوي أو النّصي وغير اللغوي أو المقامي) يعدّ أداة ضرورية في فهم الخطاب النبوي وتأويله، ومن ثم حصول مقاصده، فهو –السياق- ميزان يعصم المتلقي من المزالق والانحرافات في فهم نصوص الحديث النبوي.

- تبيّن من الدراسة التطبيقية أن المعاني المتضمنة في الأحاديث النبوية غير جلية ما لم تستحضر بقية السياقات كالأحاديث الواردة في الموضوع الواحد، أو اختلاف الروايات،....وغيرها مما يعني أن هذه السياقات مجتمعة هو ما يوصل المتلقي إلى مقاصد المتكلم الحقيقية.

- تجدر الإشارة أيضا أن الفهم المعجمي للحديث النبوي دون استحضار الأحوال والسياقات الاجتماعية والثقافية التي أنتجتها من الأمور التي تحرّف الأحاديث عن دلالاتها ومقاصدها.

-تتظافر القرائن الحالية والمقامية لإيضاح معنى النص؛ فهي كلها مسؤولة عن أمن اللبس، وعن وضوح المعنى، وهي أيضا لا تستعمل واحدة منها بمفردها إنما مجتمعة لتوصل النص إلى مقاصده المطلوبة.

بيبليوغرافيا المصادر والمراجع:

1- الأفق التداولي- نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية، إدريس مقبول .

2- الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت،1983م، ج1.

3-إعجاز القرآن الكريم والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، مكتبة مصر، د ط، د ت.

4- بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، عبد الرحمن الحاج صالح، موفم للنشر، الجزائر، 2012م.

5- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت.

6- التأويل الدلالي- التداولي للملفوظات وأنواع الكفايات المطلوبة في المؤول، إدريس سرحان، ضمن كتاب: التداوليات علم استعمال اللغة، تنسيق وتقديم: حافظ اسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إربد- الأردن، الطبعة الثانية، 2014م.

7- تحليل الخطاب وتجاوز المعنى، نحو بناء نظرية المسالك والغايات، محمد محمد يونس علي، دار كنوز المعرفة، ط1، عمان- الأردن، 2013م.

8- التصوير المجازي والكنائي، صلاح الدين محمد أحمد، مكتبة سعيد رأفت، ط1، 1988م.

9- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، ط8، 1999م.

10- الحجاج والاستدلال الحجاجي، حبيب أعراب، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، عالم الكتب الحديث، الأردن.

11- خطب أبي يعلى الزواوي، أبي يعلى الزواوي، اعتنى بها: عادل بن الحاج همال الجزائري، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت.

12- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلّق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

13- دلالة السياق، ردّة الله بن ردّة بن ضيف الله الطّلحي، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، 1418هـ.

14- استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2004م.

15- سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، دمشق، 1378هـ.

16- الشفا بتعريف حقوق سيدنا المصطفى، القاضي عياض، مراجعة: هيثم الطعيمي، ونجيب ماجدي، دار الرشاد الحديثة، د ط، الدار البيضاء، 2006م.

17- فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري، بن حجر العسقلاني، قرأ أصله تصحيحا وتحقيقا: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، المكتبة السلفية.

18- صحيح البخاري، البخاري، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 2002م.

19- صحيح مسلم، اعتنى به : أبو صعيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الرياض، 1998م.

20- عبد المجيد السيد، دراسات في اللسانيات العربية: بنية الجملة العربية- التراكيب النحوية والتداولية علم النحو وعلم المعاني، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، الطبعة الأولى، 2004م.

21- علم لغة النص النظرية والتطبيق، عزة شبل محمد، مكتبة الآداب، ط1، القاهرة، 2007م.

22- فيتغنشتاين والتداولية مقاربة فلسفية لمرحلة التأسيس، قادري عبد الرحمن، دكتوراه علوم في الفلسفة، جامعة وهران 2، 2014- 2015م.

23- لسانيات التواصل الإنساني من العبارة إلى القصد، عبد العزيز بنعيش، مطبعة أنفو، فاس- المغرب، الطبعة الثانية، 2014م.

24- اللّمع في أسباب الحديث، السيوطي، تحق: غياث عبد اللطيف دحروج، دار المعرفة، ط1، بيروت، 2004م.

25- نظرية السياق بين القدماء والمحدثين دراسة لغوية نحوية دلالية، عبد النّعيم خليل، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط1، الإسكندرية، 2007م.

26- النص والتأويل- دراسة دلالية في الفكر المعرفي التراثي، منقور عبد الجليل، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 2010م.

27- المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينكو، تر: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، د ت.

28- المعنى والقصد بين الإظهار والإضمار في التراث اللغوي العربي القديم ولسانيات التخاطب، محمد السهول، ضمن كتاب: قضايا المعنى في التفكير اللساني والفلسفي، الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم، تونس، 2015م.

29- مشكاة المصابيح، الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ط2، بيروت، 1979م.

30- المشيرات المقامية في اللغة العربية، نرجس باديس، مركز النشر الجامعي، منوبة، 2009م.

31- الموافقات، الشاطبي، تحقيق: عبد الله دراز، دار المعرفة، 1989م.